القدس
في ذاكرة النص
أبحاث محكمة

تحـرير

د. هاني إسماعيل رمضان

المشاركـــون

د. هاني إسماعيل رمضان
د. إبراهيـــم فضـــل الله
د. نـــدى مرعشـــلي
د. أحـــمـــد نتـــوف
د. السـيد محمـد سـالم
د. ماهر صالح بن رمضان
د. عبد الرحمـن بغـــداد
د. حاج عبد القـادر يخلف
د. أيمن أحمد رؤوف القادري









Kitabın Adı : el- Kudüs fi Zâkiret'il-Naş
Metnin Belleğinde KUDÜS
Yazar : Doç. Dr. Hany Ismail RAMADAN

1. Baskı : Eylül 2022 ANKARA

Yayın Yönetmeni : Sinem ZORLU
ISBN : 978-625-8321-74-6
Yayın No. : 1679

SONÇAĞ AKADEMİ

İstanbul Cad. İstanbul Çarşısı No.: 48/49 İskitler 06070 ANKARA

T / (312) 341 36 67 - GSM / (533) 093 78 64

www.soncagyayincilik.com.tr

soncagyayincilik@gmail.com

Yayıncı Sertifika Numarası: 47865

BASKI VE CİLT MERKEZİ



UZUN DİJİTAL MATBAA, SONÇAĞ YAYINCILIK MATBAACILIK TESCİLLİ MARKASIDIR.

İstanbul Cad. İstanbul Çarşısı No.: 48/48 İskitler 06070 ANKARA

T / (312) 341 36 67

www.uzundijital.com

uzun@uzundijital.com

سيميائية صورة القدس
في «البداية والنهاية» لابن كثير

د. أيمن أحمد رؤوف القادري[1]

(1) أستاذ برتبة بروفيسور في الجامعة اللبنانية وفي جامعة الجنان، ومشرف على رسائل وأطاريح في عدة جامعات لبنانية. عضو في عدة لجان جامعية، وفي لجان علمية لمؤتمرات، له ثلاثة دواوين شعرية، وخمس قصص للأطفال، وسبعة كتب مطبوعة، ومقالات كثيرة في الصحف.

ملخَّص البحث

عنوان البحث سيميائية صورة القدس في «البداية والنهاية» لابن كثير، وهو يدرس سيميائيّة الألفاظ المعبّرة عن مكانة القدس في الكتاب، ولهذا اعتمدنا المنهج السيميائي، وقد حلّلنا ألفاظ ابن كثير المقارِبة لكلمة «القدس»؛ لتعميق مفهوم «القدس»، ودرسنا سيميائيًا نصوصًا تبيّن مكانة القدس الدينية، ومكانتها في قلوب الناس، فلمسنا جودة توظيف الدلالات الفرعية، لتعميق الدلالة المركزية «القدس»، وكانت لنا وقفات مع حكّام اقترنت بعض مفاصل حياتهم بالقدس؛ لنصل إلى نتائج تؤكّد ما سبق.

الكلمات المفتاحية: ابن كثير- البداية والنهاية- القدس- سيميائية.

Abstract

The title of the research is the semiotics of the image of Jerusalem in "The Beginning and the End" by Ibn Kathir. He studies the semiotics of the expressions of the position of Jerusalem in the book. This is why we adopted the semiotic approach.

We have analyzed Ibn Kathir's expressions close to the word "Jerusalem" to deepen the concept of "Jerusalem.«

We semiotically studied texts that show the religious status of Jerusalem, and its place in people's hearts.

We had pauses with rulers whose lives were linked to Jerusalem, in order to reach results that confirm the above.

أولاً: مقدمة

1. الكلمة تقارع

فتح عمر بن الخطاب القدس عام 16ه/637م، وسقط في أيدي الصليبيين عام 492هـ/1099م، ثم حرّره صلاح الدين الأيوبي عام 583هـ/1187م، وبعد قرون تمكّنت الصهيونية من فرض كيان غاصب لها في فلسطين، أعلنته رسميًا عام 1367هـ/ 1948م[1].

وعلى الرّغم من أنّ الأمّة قدّمت جهودًا قويّة لإبقاء فلسطين حرّة، ثمّ لاستعادتها، إلّا أنّها ما زالتْ خلفَ القضبان، وهذا يعني أنّه لا بدّ من إبقاء حالةِ التوثّب قائمة، على كلّ صعيد؛ لتحريرها من قبضة الصّهاينة.

ويدخل في هذا الإطار «الحرب النفسية»، وهي: استخدام أيّ وسيلة بقصد التأثير في الروح المعنوية، وفي سلوك جماعة، لغرض عسكريّ معيّن[2]، ومن هذه الوسائلِ: الإعلامُ على اختلاف صُوَرِه[3].

والكتابة البحثية تؤازر الإعلام، وإن كانت تخاطب العقل بموضوعية وهدوء، دون تجييش للجماهير، إنّها تخاطب النُّخَب، وتنشد الحقائق المعلّلة، بإقناع صارم.

ولكن المحتلّين عبر العصور يعلمون أن صوت العقل الحكيم حرب نفسيّة أيضًا، ولهذا اضطهدوا واعتقلوا وأعدموا ونفَوا كلّ مقاوِم، وهم يقتفون في ذلك خطوات قادة اليونان، حين ضاقوا ذرعًا بمنطق سقراط (398ق.م.)، وقرّروا أن يموت، ولو بأن يحتسي السمّ بيده[4]!

---

(1) راجع في هذه المحطات ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، لا ب، ط1، 1997م، 16/564-16/166-12/44؛ عارف باشا العارف: تاريخ القدس، مصر: دار المعارف، لا ط، 1951م، ص78-71-47.

(2) حسن الحسن: الدولة الحديثة إعلام واستعلام، بيروت: دار العلم للملايين، لا ط، 1986م، ص283.

(3) حسن الحسن: الدولة الحديثة إعلام واستعلام، ص236.

(4) إبراهيم بيومي مدكور ويوسف كرم: دروس في تاريخ الفلسفة، القاهرة: المطبعة الأميرية، لا ط، 1945م، ص12؛ نبيل موسى: موسوعة مشاهير العالم أعلام علم النفس وعلم التربية والطب النفسي والتحليل النفسي، بيروت: دار الصداقة العربية، ط1، 2002م، ج1، ص225.

2. أهمية هذا البحث، وأسباب اختياره

وبناء على ما سبق، ارتأيتُ تناوُل صورة القدس في كتاب تراثي، سجّل دقائق التاريخ، وركّز على «القُدْس»، في مواضع متفرّقة، فأخبرنا عن رؤية اليهود إليه، ورؤية المسيحيين، ورؤية المسلمين، فاستحضر ما ورد في حقّه في القرآن، والأحاديث، والشعر، واستفاض في تسجيل الأحداث التي ترتبط به. وأعني بذلك «البداية والنهاية» الموسوعة التاريخية لإسماعيل بن عمر ابن كثير، أبي الفداء، عماد الدين (774-701هـ/1373-1302م)[1].

وأبرز سبب لاتخاذ هذا الكتاب مدوّنةَ البحثِ، أنّ التنقيب في التاريخ مفتاح لإقالة عثرات الحاضر، ولا بد من تتبّع حركة التاريخ بعناية بغية فهم حتمياتها[2]، وإدراك ما فيها من سنن مُطَّرِدة[3]؛ ولهذا حفل القرآن بطائفة عظيمة من أخبار الأمم السابقة، وهو يطرح مشروع نهضة شاملة، لا لأمة ذات أطر ضيقة، بل للإنسانية جمعاء:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[الأنبياء، 107/21].

وقد أدرك علماؤنا هذا، فتوجّهوا منذ بداية تصنيفهم في التاريخ إلى أخبار الأمم الماضية[4]، ثم استخلصوا دروسها، وهذا يوضحه عنوان كتاب مِسْكَوَيه (421ه): تجارب الأمم وتعاقُب الهِمَم[5].

وثمة سبب آخر هو ابن كثير نفسُه، فقد وُلِد عَقِب انتهاء الحروب الصليبية التي هدّدت البلاد الإسلامية، وهدّدتِ القدس خاصة، وقد امتدّت من عام 490هـ/1096م إلى عام 690هـ/1291م[6].

ثم إنّه متعدّد المعارف: مؤرّخ، يبرع في الفقه، ويفسّر القرآن، ويصنِّف

---

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002م، 321-320/1.

(2) سميح عاطف الزين: حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي، بيروت: دار الكتاب اللبناني- القاهرة: دار الكتاب المصري، ط2، 1991م، ص11-10.

(3) سميح عاطف الزين: حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي، ص36.

(4) عبد الحليم عويس: الحضارة الإسلامية إبداع الماضي وآفاق المستقبل، القاهرة: دار الصحوة، ط1، 2010م، ص153.

(5) عبد الحليم عويس: الحضارة الإسلامية إبداع الماضي وآفاق المستقبل، ص157.

(6) مجموعة مؤلفين: المنجد في الأعلام، (مطبوع مع المنجد في اللغة)، بيروت: دار المشرق، ط28، 2007م، ص348.

في مصطلح الحديث، ويهتمّ بمقارعة أعداء الأمة المتربّصين، فيكتب رسالة في الجهاد[1]، ويمضـــي غالب عمره في دمشق، قريبًا من أرض الرباط بالقدس[2].

4. الإشكالية والتّساؤلات

تتركّز الدّراسة في سؤال واحد ملحّ: كيف استطاعت سيميائية كلمات ابن كثير وصوره أن تبرز مكانة القدس؟

وتندرج تحت هذا السؤال تساؤلات عديدة:

- ما دلالة لفظة «القدس» لغة واصطلاحًا؟
- ما عناصر الحقل المعجمي للفظة «القدس» على امتداد «البداية والنهاية»؟
- كيف أظهرت سيميائية ابن كثير مكانة القدس الدينية؟
- كيف أظهرت هذه السيميائية مكانة القدس في قلوب الناس؟
- كيف أظهرت هذه السيميائية مكانة القدس عبر ممارسات الحكام الغيورين؟

5. حدود الدراسة

ليس البحث ميدانيًا أو إحصائيًا، لذلك نحن بحاجة فقط إلى تبيان حدوده الموضوعية، وهو مدوّنة واحدة: «البداية والنهاية»، ولن يتطرّق البحث إلّا إلى الكلمات والعبارات والسياقات التي تناولت «القدس»، وسيحرص على انتقاء ما ظهرت فيه سيميائية تبرز الدلالات بأسلوب خاصّ.

6. المنهج المعتمد

دراستنا تعرض صورة القدس لدى ابن كثير، فلا بد أن تبحث في دلالات الألفاظ المعبرة عن مكانة القدس عنده، والعناصر الرديفة التي ضمّنها كلامه، أثناء بسط الحديث عنها، فهي ذات طاقات دلالية وافرة.

---

(1) الزركلي: الأعلام، 321-1/320.

(2) الزركلي: الأعلام، 321-1/320.



ولهذا اعتمدت المنهج السيميائي، الذي نشأ على يد فردناند دوسوسير (1857-1913)[1] (Ferdinand de Saussure) .

وتقوم السيميائية semiology/semiotics، ولا سيما «علم الدلالة» semantics المتفرع منها، بدراسة الدلالات اللغوية، وبرصد جذورها، وتغيّرها، وظروف هذا التغيّر، ويراعي علم الدلالة في فهم هذه الدلالات البيئات المختلفة: الثقافية-اللغوية-الدينية-الجغرافية-العمرية...[2].

ويدرس المنهج السيميائي الدلالات غير اللغوية (العلامات: الألوان والإشارات اليدوية وتعابير الوجوه وأصوات الطبول...)، ويبحث في عناصر الأساطير والقصص الدينية والحضارات (سيميائية الهلال- سيميائية البقرة عند الفراعنة- سيميائية الغراب عند العرب- سيميائية الطائر الأزرق عند الأميركيين...)[3].

7. الإجراءات البحثية

تقوم الإجراءات على أمرين:

- دراسة الحقول المعجمية التي تدور في فلك كلمة «القدس» وتعبّر عن معناها وامتداداتها.
- البحث عن الدلالة الثانية (connotation)، وهي الدلالة الإيحائية المصاحبة، وتكون أبعد من الدلالة التصريحية المرتبطة بالنظام اللغوي، وهنا لا بد من البحث عن طريقة استحضار الرمز (symbol) الملائم، وإجادة توظيفه[4].

8. الدراسات السابقة

لم أجد في المكتبة العربية دراسة تتناول سيميائية شيء في «البداية والنهاية»، بل لم أجد ما تناوله من أي منظور أدبي آخر، وتذهب الدراسات التي تناولت ابن

---

(1) نبيل أيوب: النقد النصي وتحليل الخطاب 2 (نظريات ومقاربات)، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، لا ط، 2011م، ص131.
(2) هيام كريدية: الألسنية الفروع والمبادئ والمصطلحات، بيروت: لا د، ط2، 2008م، ص31.
(3) هيام كريدية: أضواء على الألسنية، بيروت: لا د، ط1، 2008م، ص40.
(4) مهى جرجور: سيميائية الشعر (بحث في كتاب لعدة مؤلفين: دليل مناهج البحث العلمي- قسم اللغة العربية وآدابها)، بيروت: الجامعة اللبنانية/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 2020م، ص.84-83

كثير إلى عرض منهجه في التاريخ أو نقدِه، ومنها:

صفاء شارد ناصر الركابي: نقد الكتب ومؤلفيها في كتاب البداية والنهاية لابن كثير، الإمارات: مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع، بكلية الإمارات للعلوم التربوية، 2018م، ص81-72.

عبد الرحمن السنيدي: منهجية التأليف في السيرة عند ابن كثير، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، لا ط، لا ت.

عبد الرحمن بن علي السنيدي: مراجعات ابن كثير ونقده لمتون مرويات السيرة النبوية، السعودية: مجلة عالم الكتب، مج24/ع1424/6-5هـ-2003م، ص405-383.

محمد الزحيلي: ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر المؤرخ الفقيه، دمشق: دار القلم، ط1، 1415هـ/1995م.

محمد عيساوي: إسهامات الحافظ ابن كثير في النقد التاريخي من خلال كتابه البداية والنهاية، السيرة النبوية أنموذجًا، الجزائر: مجلة «الحكمة للدراسات التاريخية»، المجلد 3، العدد 6، لا ت، ص53-39.

مختار حديد: النقد التاريخي عند المؤرخ ابن كثير من خلال كتابه البداية والنهاية، الجزائر: مجلة «قضايا تاريخية»، العدد 9، رمضان 1439ه/حزيران 2018م، ص84-71.

ثانيًا: الدراسة

1. دلالة القدس بين اللغة والاصطلاح

أصل التّقديس لغة: التّطهير[1]، ثم تنامى المعنى ليتّصل بالبُعد الدّينيّ: «تنزيه الحقّ عن كل ما لا يليق بجنابه، وعن النقائص الكونية مطلقًا، وعن جميع ما يُعدّ كمالًا بالنسبة إلى غيره من الموجودات، مجرّدة كانت أم غير مجرّدة»[2]،

(1) إسماعيل بن حماد الجوهري: الصّحاح، اعتناء خليل مأمون شيحا، بيروت: دار المعرفة، ط4، 2012، مادة (قدس)، ص841.

(2) الشريف الجرجاني: التعريفات، تحقيق عادل أنور خضر، بيروت: دار المعرفة، ط1، 2007، ص63.

والتّقديس بذلك أشدّ من التّنزيه[1]. وقد حافظ اللفظُ على مفهومه هذا في المعاجم الحديثة: «قدّس لله: ... عظّمه وكبَّره»[2]، و«القداسة: الطّهر والبركة»[3].

وفي كلّ أمّة مقدَّسات تحرص عليها، وتظهر حيالها فروض التعظيم، وتحيطها بهالة من الاحترام الشديد. ويتّسِم بعضُها بالتّجريد، كتقديس اللّه الّذي لا تقع عليه الحواسّ، ويتَّسِم بعضها الآخر بالمادّيّة، كتقديس المكان: ﴿يا قَومِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الـمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة، 5/21].

وثمة أمور لم توصف بالتقديس، بل التّعظيم، ومنها أيّام الحجّ: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحجّ، 22/32]، واستخدم محمود شلتوت (1963م) مصطلح «الاصطفاء» للتعبير عن الأزمنة الإسلامية المخصّصة بالتوقير[4].

ولفظة «القُدْس» تحديدًا هي في الأساس: «تنزُّهُ اللّه عزّ وجلّ»[5]، وحين تكون علَمًا لمكان، فإنها تطلق على جَبَل لقبيلة مُزَينة[6]، ويرى آخرون أنّه ثمة جبلان في الحجاز لُمزينة يحملان هذا الاسم: قُدسٌ الأبيض، وقُدسٌ الأسود[7].

ثمّ أطلق لفظ «القدس» أو «بيت المقدِس» على أورشليم القديمة بفلسطين[8]، وكان يحجّ إليها المسيحيون؛ لأنها «البيت المطهَّر الّذي يُتَطَهَّر به مِن الذُّنوبِ»[9]. وقال امرؤ القيس: «كما شَبْرَقَ الوِلدانُ ثوبَ المَقَدِّس»[10]، لأنّ «الصبيان يتمسَّحون

(1) الشريف الجرجاني: التعريفات، ص63.
(2) إبراهيم مصطفى (وآخرون): المعجم الوسيط، إستانبول: دار الدعوة، لا ط، لا ت، مادة (قدس)، 2/719.
(3) إبراهيم مصطفى (وآخرون): المعجم الوسيط، مادة (قدس)، 2/719.
(4) محمود شلتوت: إلى جميع المسلمين في شهر رمضان، القاهرة: مجلة الأزهر، الجزء9، المجلد31، رمضان 1379هـ.
(5) ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت: دار صادر، لا ط، لا ت، 4/311.
(6) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 4/311.
(7) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 4/311.
(8) مجموعة مؤلفين: المنجد في الأعلام، ص434.
(9) أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق رياض قاسم، بيروت: دار المعرفة، ط1، 2001م، مادة (قدس)، 3/2900.
(10) حسن السندوبي: شرح ديوان امرئ القيس، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ، ط3، 1953م، ص120.

بثيابه تبرّكًا به، فيمزّقونها»[1]، والمقدِّس: هو الرّاهب الذي يأتي بيت المقدس حاجًّا[2]، أو هو الرّاهب إطلاقًا[3].

وقد أصبحت المدينة موقعًا مقدسًا عند المسيحيين، لقولهم إنّ المسيح صُلب على تلّة «الجُلْجُثَة» (الجلجلة)[4].

وأشار القرآن إلى القدس بذكر المسجد الأقصى فيها: ﴿سُبْحانَ الّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيلًا مِنَ المسْجِدِ الحَرامِ إلى المسجِدِ الأَقْصَى الَّذِي باركْنا حَولَهُ﴾ [الإسراء، 17/1][5].

وكذلك فَسّر بعضُهُم المواضعَ المذكورةَ في الآيات التالية بأنها القُدس[6]: ﴿وواعَدْناكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأيمنَ ﴾[طه، 20/80][7]، و﴿ونَجَّيْنَاهُ ولُوطًا إلى الأَرضِ الّتي باركْنا فيها لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء، 21/71][8]، و﴿وَجَعَلْنا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ آيةً، وآوَيناهُما إلى رَبوةٍ ذاتِ قرارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون، 23/50][9]، و﴿في بيوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُهُ﴾ [النور، 24/36][10].

ونقل ياقوت الحموي (626هـ) عن كعب الأحبار (32هـ) أنّ جميع الأنبياء زاروا بيتَ المقدِس تعظيمًا له[11]، ونقل عن ابن عباس (68هـ) أنّه «بنته الأنبياء، وسكنته الأنبياء، ما فيه موضع شبر إلّا وقد صلّى فيه نبيّ، أو أقام فيه ملَك»[12].

---

(1) محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، بيروت: دار الفكر، لا ط، 1979م، مادة (قدس)، ص495.

(2) حسن السندوبي: شرح ديوان امرئ القيس، ص120، ه1.

(3) إبراهيم مصطفى (وآخرون): المعجم الوسيط، مادة (قدس)، 2/719.

(4) العهد الجديد، إنجيل متى، الأصحاح 27، الجملة 24.

(5) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419ه، 5/3.

(6) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 5/166.

(7) قال الخازن إنها بلاد الشام، وسبب بركتها أن فيها بيت المقدس. أبو الحسن الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح محمد علي شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415ه، 3/231.

(8) في ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، 5/310: أنها الشام عـمومًا.

(9) الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، 3/272 وذكر أنه رأي ابن عباس

(10) ذكر الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، 3/298 أن بيت المقدس منها.

(11) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 5/167.

(12) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 5/167.

أمّا حاليًّا فالقدس مدينة فلسطينية تقع ضمن سلسلة جبال الخليل، وتتوسط المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والطرف الشمالي للبحر الميت[1].

2. الحقل المعجمي للقدس في «البداية والنهاية»

الحقل المعجمي (Lexical field) أو الدلالي (Semantic field) عبارة عن مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها[2]، إذ ينبغي لفهم معنى كلمة ما أن نفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليًا[3].

ويشمل هذا الحقل: اللفظة الأساسية ومشتقاتها ومرادفاتها وما يرتبط بها على سبيل الجزئية أو التضمين أو الاستعمال[4].

وفي «البداية والنهاية» تظهر لنا صورة القدس مُلِحّة، متبادِرة إلى ذهن ابن كثير دومًا، ولذلك يستحضر ألفاظه، ولو في سياقات أخرى، وكأنّه يأبى أن يفارق قلمه؛ فنراه يذكر «القدس» مرارًا[5]، ويذكر أيضًا جبريل عليه السلام، بعبارة «روح القدس»[6]، وبذلك يترابط المسمّيان في السّموّ، والوحي، والشّقّ الرّوحيّ عامّة.

إنّ جبريل، عليه السلام، أمين الوحي، وهو الّذي أوصل محمدًا عليه الصلاة والسلام يوم المعراج إلى السّماوات العلا، من المسجد الأقصى بالقدس، بعد رحلة الإسراء من المدينة[7]، وهكذا تتوثّق الصلة بين «القدس» و«روح القدس»؛ ولهذا يرتبط المسجد الأقصى عند ابن كثير بثلاثة مصطلحات متواترة: الإسراء[8]،

---

(1) عارف باشا العارف: تاريخ القدس، ص.186

(2) أحمد مختار عمر: علم الدلالة، القاهرة: عالم الكتب، ط6، 2006م، ص79.

(3) أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص79– 80.

(4) أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص80– 81– 98.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، 2/293– 3/86– 9/582– 9/662.....

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، 2/534– 5/279.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، 4/276.

(8) ابن كثير: البداية والنهاية، 4/287– 4/281– 4/283– 4/284– 4/285...

والمعراج[1]، والبُــراق[2]، والثلاثة بِرُمَّتِها تدلّ على الحركة النوعية.

وفــي إجراء مماثل أو أبلغ يذكر عبارة «بيت المَقدِس مقدَّس في السّماوات السّبع...»[3]، وبذلك ربط بين الدلالتيــن اللغوية والاصطلاحية للقدس، ليثبت أن لقب هذه المدينة ليس أوسع مما يليق بها.

ونرى في تلك العبارة ربط «القدس» بــ«السماوات» المعبّرة عن العلوّ والرّفعة والشّموخ والاتّساع والكثرة، ولا ننسى أن العدد «سبْع» يحمل دلالة جانبية من خلال إيحاءات الحروف، فنتذكّر «السّبُع» المفترس، المشبَع بالقوّة والعظمة.

وهو علاوة على ذكر «القدس» باللفظ الصريح، يُتبِعه أحيانًا بوصف «الشريف»[4]، وأجمل المواضع قوله: «وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمًا مَشْهُودًا، وَمِنْ نِيَّتِهِ (السلطان صلاح الدين) الْخُرُوجُ سَرِيعًا إِلَى قِتَالِ الْفِرِنْجِ، فَبَرَزَ مِنْهَا فِي أَوَّلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ فِي جَحَافِلِهِ قَاصِدًا نَحْوَ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ...»[5]، فكأنّ ذكر القتال لتحرير القدس استدعى تذكُّرَ أنّه أرقى ساحات الشرف والكرامة، لاستحثاث الحميّة، واستنهاض الهمم.

وقد يقول في الدعاء للقدس: «شرّفه اللّه»[6]، فكأنّه ينتقل من وظيفة إقرار هذا الشرف إلى وظيفة أخرى، وهي سؤال المزيد، وإحالة الشرف المطلوب إلى أن يربط باللّه- عزّ وجلّ- ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ موقع القدس الديني هو الذي أحدث فيها هذا الشرف، وأنّ الدعاء مفاده طلب أن تبقى ذات ريادة دينية تضيف إلى رصيدها المزيد من التشريف.

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 4/276- 16/591- 17/419- 18/507- 20/289- 20/294- 20/309...
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/362- 1/368- 3/179- 4/287- 9/380- 11/88- 16/591- 19/370..
(3) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/95.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/565- 16/596- 16/603- 16/611- 16/639- 16/640...
(5) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/565.
(6) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/375

وقد يذكر عوضًا عن «القدس»: «بيت المقدس»[1]، أو «أورشليم»[2]، أو «ساعير»[3]، وفي ذلك ربط المدينة بكل حيثياتها الدينية، التي تعبّر عنها مصطلحات التوراة والإنجيل أيضًا.

وبناء على ما سبق، نرى أن المعركة التي شنتها جيوش الفرنجة تحت لواء الصليب، لم تجرّ ابن كثير إلى ردات فعل خاطئة، ولم ينظر إلى المسيحية بذاتها على أنها الخصم، ولم ير أن القدس ينبغي أن يبتر صلته بالمسيحية، جرّاء ما اقترفته جيوش «الصليبيين».

وتأكيدًا لهذا يكثر كذلك من إيراد ما يتّصل بالمسيح عليه السلام، فيذكره بلفظي المسيح[4]، وعيسى بن مريم[5]، ويذكر بيت لحم (مكان مولده)[6]، ويذكر السيدة مريم بمفردها[7]، وقبر حَنّة أم مريم[8]، ولعل ذكر الأمومة يهب القدس صفة الحاضنة الحنون.

ويذكر من أبرز معالم «القدس» «المسجد الأقصى»[9] بهذا اللفظ، أو «مسجد بيت المقدس»[10]، وقد يقول «مسجد إيليا»[11]، أو «مسجد إيلياء»[12]، ولعلّه ينظر إلى بعض تفسيرات «إيلِياء»: «بيتُ اللّه»[13]، وهو بهذا اللفظ ورد في الحديث: «إنما

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 9/108– 9/110– 9/141– 9/165– 9/239– 9/289– 9/318– 9/344– 9/364.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/453– 2/369.
(3) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/452– 1/453– 9/107– 9/108.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 2/414– 2/451– 2/471– 2/456– 2/452– 2/509– 2/511– 2/513...
(5) ابن كثير: البداية والنهاية، 19/55– 18/422– 19/515– 17/720– 17/511– 17/58– 19/66.
(6) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/454– 2/533– 3/87– 9/662– 12/564– 15/297...
(7) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/227– 2/37– 2/120– 2/318– 2/396– 2/416– 2/418– 2/419– 2/420– 2/423– 2/425....
(8) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/594.
(9) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/44– 1/374– 2/413– 2/439– 3/475– 17/317...
(10) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/44– 1/45– 1/374...
(11) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/374.
(12) ابن كثير: البداية والنهاية، 4/271.
(13) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 1/293.

يُسافَر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدي، ومسجد إيلِياء»[1]، ولا ريب أن الإضافة إلى لفظ الجلالة هنا إضافة تشريف، ويا لهذا التشريف.

ويتطرّق إلى بعض ما في «المسجد الأقصى» نحو «محراب الأقصى»[2]، و«المحراب» مرتبطة في جذرها بالحرب، وهذا يحمل نفحة جهادية وقد «سمّي بذلك؛ لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى»[3]. وبذلك نتذكر الآية التي تصف مواجهة الأهواء بالجهاد: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فينا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا﴾ [العنكبوت، 29/69][4].

وقد يذكر ما يجاور «المسجد الأقصى» نحو «قبّة الصخرة»[5] ولا عجب فـي ذلك؛ فهذه القبّة: «قِبْلَةِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ مِنْ قَدْيمِ الْأَزْمَانِ»[6].

ويورد أيضًا تفسير «التين» في القرآن بأنه مسجد بيت المقدس أو الجبل الذي تحته[7]، وهنا نتذكّر أنّ اللّه أقسم بالتيـن:﴿ والتِّيـنِ والزَّيتُونِ ﴾[التيـن، 95/1]، وفي ذلك إضافة نوعية إلى مكانة هذا المسجد عند اللّه، ثمّ إنّ في التين عذوبة وحلاوة يحسن أن تقترنا بهذا المسجد.

وكذلك يذكر فلسطين[8]، وهنا نعود إلى الآية: ﴿إلى المسْجِدِ الَأقْصىَ الِذَّي بارَكْنَا حَولَهُ...﴾ [الإسراء، 17/1]، فقد وسّع بعض المفسّرينَ مَوضِع البركة، ليشمل كل فلسطين، بل أرض الشام[9].

---

(1) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، لا ط، لا ت، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، الحديث (1397)، 2/1015.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/594.

(3) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1438ه/2017م، ص190.

(4) الفخر الرازي: مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420ه، 5/77.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/586- 16/589- 16/607...

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/586.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، 1/45- 1/46- 9/108- 12/587...

(8) ابن كثير: البداية والنهاية، 2/474- 2/381- 6/469- 6/482- 8/23- 9/543- 9/544- 9/577- 9/578...

(9) الفخر الرازي: مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، 2/339.

ويذكر «الفرنج»[1] الذين شنّوا الحروب الصليبية، وغالبًا ما يقرنهم بمفردات الحرب: «قتال الفرنج»[2]، و«مقاتلة الفرنج»[3]، و«أغارت الفرنج»[4]، و«حاصر الفرنج»[5]، و«فقتله الفرنج»[6]... وهذا الأمر متوقَّع، لا يحتاج إلى تعليل.

3. مكانة القدس الدينية في «البداية والنهاية»

طالوت ودهن القدس

نقل ابن كثير هذه الرواية: «قِيلَ: كَانَ اللّه قَدْ أَوْحَى إِلَى شَمْوِيلَ، أَنَّ أَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ طُولُهُ عَلَى طُولِ هَذِهِ الْعَصَا، وَإِذَا حَضَرَ عِنْدَكَ يَفُورُ هَذَا الْقَرْنُ الَّذِي فِيهِ مِنْ دُهْنِ الْقُدْسِ، فَهُوَ مِلْكُهُمْ، فَجَعَلُوا يَدْخُلُونَ وَيَقِيسُونَ أَنْفُسَهُمْ بِتِلْكَ الْعَصَا، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى طُولِهَا سِوَى طَالُوتَ، وَلَمَّا حَضَرَ عِنْدَ شَمْوِيلَ فَارَ ذَلِكَ الْقَرْنُ فَدَهَنَهُ مِنْهُ وَعَيَّنَهُ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ والجِسْمِ﴾ [البقرة، 247/1]»[7].

جميلٌ أن يرد «القدس» حيث ورد ذكر اللّه مرتين، ووردت آية كريمة ووردت كلمات تحمل العظمة والتوقير والشرف: أوحى-شمويل (صموئيل)[8]- إسرائيل (يعقوب)- طوله- طول- طولها- مِلكهم- الملِك- طالوت- اصطفاه- زاده- بسطة- العلم...

لقد أحسن ابن كثير انتقاء هذا الأثر، ليعزّز مكانة القدس عبر التاريخ الديني، ولم يعنِ هنا أن يكون الأثر صحيحًا، ولهذا صدّره بــ«قيل».

وأما ارتباط القدس بالدّهن فيفيد التغذية والخير المتعدّد، ويذكّرنا بطور

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/677- 16/678- 16/680- 16/687- 16/694- 16/696- 16/728...

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/675.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، 17/32.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 17/45.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، 17/64.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، 17/68.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، 2/293.

(8) نَبِيّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، طَلَب منه بنو إسرائيل أَنْ يُقِيمَ لَهُمْ مَلِكًا لِيُقَاتِلُوا مَعَهُ الْأَعْدَاءَ. ابن كثير: البداية والنهاية، 2/287.

سيناء في الآية: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ...﴾ [المؤمنون، 23/20]، وجبل سيناء مرتبط ببداية الوحي على موسى، عليه السلام.

مكان ولادة السيدة مريم

وذكر ابن كثير المكان الذي ولدت فيه مريم عليها السلام، قائلًا: «انتبذت، أي انفردت وحدها شرقيّ المسجد الأقصى»[1].

اجتمع في العبارة التي تتحدّث عن خير نساء العالمين[2] أربعةُ ألفاظ تدلّ على الفرادة والتميّز (انتبذت- انفردت- وحدها- الأقصى)، وساعدها في التألّق أمران:

ذكر «الشروق» في «شرقيّ»، ودلالته أن ولادة ابنها تعني إخراج البشرية من الظلمات إلى النور، وبداية يوم جديد.

وذكر «المسجد» المتحدّر من «السجود»، ومن دلالاته الدينية الارتفاعُ: «فإنك لا تسجد لله سجدةً، إلّا رَفَعَك الله بها درجة...»[3]، ومنها القربُ إلى الله ﴿... وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق، 96/19].

الملك قسطنطين والأناجيل

وقال ابن كثير: «... وَطَلَبَ [الْمَلِكُ قُسْطَنْطِين] مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ كُلَّ أُسْقُفٍ، وَكُلَّ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَجَمَعَ الْبَطَارِقَةَ الْأَرْبَعَةَ مِنَ الْقُدْسِ، وَأَنْطَاكِيَةَ وَرُومِيَّةَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ، فَيُقَالَ: إِنَّهُمُ اجْتَمَعُوا فِي مُدَّةِ سَنَةٍ وَشَهْرَيْنِ مَا يَزِيدُ عَلَى أَلْفَيْ أُسْقُفٍ»[4].

نلاحظ هنا أنّ النّصّ قال: «من سائر الأقاليم كلّ أسقف»، ثم أردف «وكلّ من عنده علم...»، وفي العبارتين عموم ظاهر أملَتْه «كلّ»، ولا سيما أنه اجتمع حصيلة «كلّ» ما يزيد على ألفي أسقف، لكن القدس وزميلاته الثلاث في حاجة إلى أن تُذكَر في سياق خاص «وَجَمَعَ الْبَطَارِقَةَ الْأَرْبَعَةَ مِنَ الْقُدْسِ، وَأَنْطَاكِيَةَ وَرُومِيَّةَ

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 2/439.
(2) ورد في الحديث الصحيح: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ». مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، الحديث 2430، 4/1886.
(3) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، باب فضل السجود والحث عليه، الحديث 488، 1/353.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 3/86.

وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ»، والتخصيص بعد التعميم تمييز، ولقد حظي القدس بأفضل هذا التمييز؛ لأنّ الكلام بدأ به قبل زميلاته.

وقد نتأوّل بعض خصائص اللغة العربية في هذه الأسماء «الْقُدْسِ، وَأَنْطَاكِيَةَ وَرُومِيَّةَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ»، فنرى أن «القدس» تميّز أيضًا بأمرين، فهو في صيغة المذكّر، وهو ممنوع من الصرف، لم يقبل الجرّ بالكسرة.

ونستطيع أن نلاحظ «القدس» هنا مسبوقًا بـ«مِن» الدّالة على البداية، فمن القدس بداية المسيح عليه السلام.

بيت المقدس والطائفة الظّاهرة

ذكر ابن كثير الحديث التالي في فضل القدس[1]:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لِعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ»، قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَأَيْنَ هُمْ؟» قَالَ: «بِبَيْتِ الْقُدْسِ، وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْقُدْسِ»[2].

وفي الحديث حقل ألفاظ دال على النّصر: ظاهرين- قاهرين-لا يضرّهم- أمر اللّه، وفيه حقل ألفاظ دال على البلاء: عدوّهم- خالفهم- أصابهم- لأواء، وفي كلّ منهما عدد مماثل، لكنّ ذكر «اللّه» في الحقل الأول يعطي الطاقة المنشودة.

ونلتفت إلى سيميائية البيت، فهو يدل على السكن والسكينة، والثبات والاستقرار. وقد زادته كلمة «أكناف» طمأنينة، لأنها تعني الاحتضان والرعاية والحنان. وهذا كلّه يتجاوب مع مفهوم «الحقّ» الذي ورد في أول الحديث، فالحقّ مستقرّ، لا يتبدّل.

طول حوض النبيّ من الكعبة إلى بيت القدس

وذكر ابن كثير أيضًا حديثًا آخر[3]:

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 19/153.

(2) أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1421ه/2001م، 36/657.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، 19/459.

«إِنَّ لِي حَوْضًا طُولُهُ مِنَ الْكَعْبَةِ إِلَى بَيْتِ الْقُدْسِ، أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، وَكُلُّ نَبِيٍّ يَدْعُو أُمَّتَهُ، وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْفِئَامُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْعُصْبَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ النَّفَرُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الرَّجُلَانِ وَالرَّجُلُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَأْتِيهِ أَحَدٌ، فَيُقَالُ: لَقَدْ بَلَّغْتَ، وَإِنِّي لَأَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

نرى هنا كلمة «الحوض» الّتي تدلّ على الامتلاء والارتواء، وقد وافقتها في الرّصف كلمات تدور في فلكها: طوله- أشدّ- عدد النّجوم- لكلّ- العصبة- أكثر.

ويقابلها حقل معجمي دالّ على التجزئة: منهم (المكررة خمس مرات)- النفر- الرجلان والرجل- أحد، فكأن حوض النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي يملأ الفراغ، ويُحدِث الاحتشاد الأعظم في مقابل الأجزاء المتفرقة الضئيلة التي تتبع سائر الأنبياء.

واستُحضِرَت صورتا «الكعبة» و«بيت القدس» لأنّ المسافة بينهما كبيرة، ولأنهما مثالان شائعان معروفان، ويؤازرهما هنا حقل معجمي دالّ على الظّهور، من عناصره: أشدّ بياضًا من اللبن-آنيته-النّجوم-يوم القيامة، لكننا نضيف أن «الكعبة» و«القدس» عاملان من عوامل قوة الدعوة النبوية، وتواتر أتباعها، وهذا الأمر معروف في الشريعة الإسلامية، وهما سبب في أن يكون محمد - صلى الله عليه وسلم - أكثر الناس تبعًا يوم القيامة.

ولعل ورود «القدس» بعد «إلى» التــي تدلّ على انتهاء الغاية مرتبطٌ بنزول عيسى بن مريم في آخر الزمان: «فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ»[2]، وورد في رواية أنّ نزوله بالأردن وفي أخرى بعسكر المسلمين. قال ابن حجر الهيتمي (974هـ): «ولا تَنافِيَ، لأنّ عسكرهم بالأردن، ودمشق وبيت المقدس من ذلك»[3].

(1) أبو نعيم الأصفهاني: تاريخ أصبهان، تحقيق سيد كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1410ه/1990م، 1/145.

(2) الإمام مسلم: صحيح مسلم، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، الحديث 2936، 4/2250.

(3) ابن حجر الهيتمي: الفتاوى الحديثية، بيروت: دار الفكر، لا ط، لا ت، ص.132

وهكذا ورد «القدس» في سياق لغوي يدل على الانتهاء، وارتبط بيوم القيامة، إذ ذُكر في الحديث، ويسبقه ظهور المسيح في جوار القدس.

كل هذه الفوائد اقترنت بـ«الحوض»، فكأنّ سيميائيته تتجه إلى استيعاب وافر وغزارة خيّرة.

1. التعبير الأنيق عن مكانة القدس في قلوب الناس

القاضي الفاضل

قال ابن كثير: «...ثُمَّ عَزَمَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ عَلَى الدُّخُولِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، فَسَارَ السُّلْطَانُ [صلاح الدّين] مَعَهُ لِتَوْدِيعِهِ ثُمَّ عَدَلَ إِلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ، فَصَلَّى فِيهِ الْجُمُعَةَ، وَعَيَّدَ فِيهِ عِيدَ الْأَضْحَى بِالصَّخْرَةِ مِنَ الْأَقْصَى...»[1].

تأمّل كيف يسوق الخبر، ويضمّ إلى لفظة «القدس» ألفاظ: القاضي-السلطان-الشريف-صلّى-الجمعة-عيد الأضحى-الصخرة... وهي توضح العدل والسلطة والقوة والتقوى. فكأنّ القدس يختزن هذه الصفات في ذاته.

الفقيه الأمير ضياء الدين

وقال: «الْفَقِيهُ الْأَمِيرُ ضِيَاءُ الدِّينِ عِيسَى الْهَكَّارِيُّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَسَدِ الدِّينِ شِيرَكُوهْ، دَخَلَ مَعَهُ إِلَى مِصْرَ، وَحَظِيَ عِنْدَهُ، ثُمَّ كَانَ مُلَازِمًا لِلسُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ حَتَّى تُوُفِّيَ فِي رِكَابِهِ بِمَنْزِلَةِ الْخَرُّوبَةِ قَرِيبًا مِنْ عَكَّا فَنُقِلَ إِلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ فَدُفِنَ بِهِ...»[2].

وهنا يقترن ذكر القدس بالموت والفناء: كان (وردت مرّتين) -توفّي-دفِنَ، غير أنّ هذا الموت تميَّز بتميّز صاحبه، فتواترت الكلمات المثنية عليه: (الفقيه-الأمير-ضياء الدين-من أصحاب أسد الدين-حظي عنده-ملازمًا للسلطان صلاح الدين)، فلا بد أن يتميَّز إذًا بتميّز مكان الدّفن (القدس الشريف).

ويبدو أنّ ذكر «مصر» يستحضر صورة التمكين التي حظي بها النبي يوسف

(1) ابن كثير: البداية والنهاية،.16/603
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/611.



-عليه السلام-هناك بعد سلسلة محن. حظوة يوسف في مصر تتردّد هنا «دخل معه إلى مصر، وحظي عنده». وهذا الأمر يعطي القدس بُعْدَه النبوي الشمولي.

اهتمام صلاح الدين بالقدس

وقال: «وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ فَرَتَّبَ أَحْوَالَهُ وَوَطَّدَهَا، وَسَدَّدَ أُمُورَهُ وَأَكَّدَهَا وَزَادَ وَقْفَ الْمَدْرَسَةِ سُوقًا بِدَكَاكِينِهَا وَأَرْضًا بِبَسَاتِينِهَا، وَزَادَ وَقْفَ الصُّوفِيَّةِ أَيْضًا»[1].

وكأن «القدس الشريف» هنا أملى على ابن كثير أن يسوق حاشية من الألفاظ الملائمة لجلاله: السلطان- وطَّد- سدّد- أكّد- زاد (وردت مرّتين)- أيضًا... وهي تدلّ على ترسيخ المكانة.

وإذا نظرنا إلى الضمائر وجدنا أنّ الكلام يتجاذبه حقل ينتمي إلى السلطان صلاح الدين، وآخر ينتمي إلى القدس:

أمّا الأول ففيه: السلطان، والضمائر المستترة في الأفعال التالية: رتّب-وطّد-أكّد-زاد (وردت مرتين)، وأما الثاني ففيه: القدس الشريف-المدرسة-سوق-دكاكين-أرض-بساتين-وقف الصوفية، وفيه ضمير الهاء في: أحوالـه-أموره، والملاحظ أنَّ سيميائية «الوقف تكمن « في إبراز مبدأ الثبات والاستقرار واستمرار المنفعة، وهذا يليق بالقدس.

كما إنَّ الحقل الثاني أوسع وأرحب، فكأن السلطان صلاح الدين حين عاد إلى القدس أنكر ذاته، أو جعلها تتضاءل في حضرة القدس.

زيارة الشاطبي للقدس

وقال: «خَرَجَ الشَّاطِبِيُّ إِلَى الْحَجِّ، فَقَدِمَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ سَنَةَ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَسَمِعَ عَلَى السِّلَفِيِّ الْحَافِظِ، وَوَلَّاهُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ مَشْيَخَةَ الْإِقْرَاءِ بِمَدْرَسَتِهِ، وَزَارَ الْقُدْسَ الشَّرِيفَ، وَصَامَ بِهِ شَهْرَ رَمَضَانَ...»[2].

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/645.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/666.

يتراءى حقل العبادات: الحجّ-صام-زار (زيارة دينية) -رمضان، ويضارعه حقل العِلم: سمع-الحافظ-مشيخة الإقراء-مدرسته. وفي كلّ من الحقلين شرفٌ ناسَبَهُ ذكر «القدس».

وتناسَق ذكر الحجّ ابتداءً، مع ما يشير إليه ضمنًا (الكعبة)، والقدس انتهاءً، مع ما يشير إليه ضمنًا (المسجد الأقصى)، وكأنّنا نعود إلى استحضار رحلة الإسراء والمعراج ﴿... مِنَ المسْجِدِ الحَرامِ إلى المسْجِدِ الأَقْصَى...﴾ [الإسراء، 17/1]

2. القدس في كنف الحكّام الغيورين

عمر بن الخطاب يصلّي في القدس

قال ابن كثير: «عَنْ عُبَيْدِ بْنِ آدَمَ، سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ لِكَعْبٍ: أَيْنَ تُرَى أَنْ أُصَلِّيَ؟ قَالَ: إِنْ أَخَذْتَ عَنِّي صَلَّيْتَ خَلْفَ الصَّخْرَةِ، فَكَانَتِ الْقُدْسُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَقَالَ عُمَرُ: ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّةَ! لَا، وَلَكِنْ أُصَلِّي حَيْثُ صَلَّى رَسُولُ اللّه - صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِبْلَةِ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَبَسَطَ رِدَاءَهُ وَكَنَسَ الْكُنَاسَةَ فِي رِدَائِهِ، وَكَنَسَ النَّاسُ....»(1).

هذه الرواية تظهر التزام عمر لما خطّه النبي -صلى اللّه عليه وسلّم-من توجيه وهَدْي، فهو يريد أن تكون الكعبة قبلته لا القدس رغم جاذبيتها الآسرة، التي سطّرتها عبارة «القدس كلّها بين يديك»، إذ تشعر بالخشوع والسموّ والاطمئنان.

وشرح ذلك أننا نجد تراكيب دالّة على التردّد: فالاستفهام بـ«أين» يعني البحث عن جواب يحدث الطمأنينة، والشرط بـ«إنْ» يعني أن النتيجة غير حتمية، وهي خاضعة لشرط يُرجى تحقيقه، ونجد ما يدلّ على الرّفض والتّعارض: لا، ولكن... لكنّ اليقين يتراءى مقترنًا بـ«القدس» الّذي أعقبَه التوكيدُ المعنويّ بـ«كلّ»: «القدسُ كلّها بين يديك»، وهذه الطمأنينة يرافقها جوّ إيمانيّ قوامُه الصلاة: أصلّي- صلّيتَ- أصلّي- صلّى- القِبلة- فصلّى...

وتبرز سيميائية «الصخرة» التي تستحضر الثبات والصمود، وهي ملائمة لثبات عمر بن الخطاب على ما تعلّمه من النبيّ، عليه الصلاة والسلام، وأما

(1) ابن كثير: البداية والنهاية،.9/662



«الرداء» فتدلّ على الإحاطة، ودور عمر في استيعاب آراء أصحابه، بحكمة ورويّة.

أبو جعفر المنصور يرمّم الأقصى

قال ابن كثير: «...فَلَمَّا كَانَ فِي خِلَافَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ قَدِمَ الْقُدْسَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ فَوَجَدَ الْأَقْصَى وَقِبَابُهُ تَشْكُو مِنَ الْخَرَابِ، فَأَمَرَ بِقَلْعِ الصَّفَائِحِ الَّتِي عَلَى الْقُبَّةِ وَالْأَبْوَابِ، وَأَنْ يُعَمَّرَ بِهَا مَا تَشَعَّثَ فِي الْحَرَمِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَكَانَ الْمَسْجِدُ طَوِيلًا فَأَمَرَ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ طُولِهِ وَيُزَادَ فِي عَرْضِهِ، وَلَمَّا كَمَلَ الْبِنَاءُ كَتَبُوا عَلَى الْقُبَّةِ مِمَّا يَلِي الْبَابَ الْقِبْلِيَّ مِنْ جِهَةِ الْأَقْصَى بِالنَّصِّ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ: بَنَى هَذِهِ الْقُبَّةَ عَبْدُ اللّه عَبْدُ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَكَانَ طُولُ الْمَسْجِدِ مِنَ الْقِبْلَةِ إِلَى الشَّمَالِ سَبْعَمِائَةٍ وَخَمْسَةٍ وَسِتِّينَ ذِرَاعًا، وَعَرَضُهُ أَرْبَعَمِائَةٍ وَسِتِّينَ ذِرَاعًا، وَكَانَ فَتْحُ الْقُدْسِ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ...».[1]

يبرز الحقل المعجمي للعمران والهندسة: قبابه– القبّة (وردت ثلاث مرّات)– الأبواب– يعمَّر– يؤخذ من طوله– يُزاد في عرضه– كمَلَ البناء– الباب القبليّ– من جهة الأقصى– بنى– طول– الشّمال– ذراعًا (وردت مرّتين).

«القبّة» تستقطب الاهتمام لورودها المتكرر، ولارتباطها بالحدث التاريخي الذي دوّنه المنصور «بنى هذه القبة...». وتكمن سيميائيتها في العلوّ والبروز والارتباط بالكرة، وهي أساس دائري لا نهائيّ، وهذا يضفي الخلود على القدس، ومِن ثَمّ كان الترميم لمنع الاندثار.

ثم يبرز الحقل المعجي للتاريخ: فِي خِلَافَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ– سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ – وَلَمَّا كَمَلَ الْبِنَاءُ – سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ – سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ..

وهذان الحقلان يختصران الحدث، فأبو جعفر المنصور يعدّل بناء المسجد، ويوثّق تاريخ التعديل، غير أنّ درّة الكلام «فتح القدس»، لما يجلبه الخبر من وقع جميل في النفوس، وهذا الفتح استدعى جملة من الألفاظ المناسبة له، تدلّ على هيبة الدولة في مراحل متعاقبة: الْهِجْرَة النَّبَوِيَّة (بداية تأسيس دولة النبي

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 44/12.

صلى اللّه عليه وسلّم) – عبد الْمَلِكِ (الخليفة الأموي)– أَمِير الْمُؤْمِنِينَ– خلافة– الْمَنْصُور...

صلاح الدين يهزم الفرنج

قال ابن كثير: «...ثُمَّ أَقْبَلُوا (الفرنج) بِخَيْلِهِمْ وَرَجِلِهِمْ جُمْلَةً نَحْوَ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ فَبَرَزَ إِلَيْهِمُ السُّلْطَانُ [صلاح الدين] فِي حِزْبِ الْإِيمَانِ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الرَّجَّالَةِ وَالْفُرْسَانِ وَالْأَبْطَالِ وَالشُّجْعَانِ، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ نَكَصَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ عَلَى عَقِبَيْهِ وَانْقَلَبُوا رَاجِعِينَ قَبْلَ الْقِتَالِ وَالنِّزَالِ وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى الْقُدْسِ وَقَدْ ﴿رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب، 33/25][1].

نتأمّل جوهر الصراع عبر كلمات: تراءى الجمعان– القتال (وردت مرّتين)– النّزال. وننظر إلى منهج ابن كثير في التعبير عن كل طرف فيه:

فالفرنج عبّر عنهم بهذه: بِخَيْلِهِمْ– رَجِلِهِمْ– نَكَصَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ عَلَى عَقِبَيْهِ– انْقَلَبُوا رَاجِعِينَ– رَدَّ اللّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ– لَمْ يَنَالُوا خيرًا.

وجيش صلاح الدين عبّر عنهم بهذه: برز– السُّلْطَان– حِزْب الْإِيمَان– الرَّجَّالَةِ وَالْفُرْسَانِ وَالْأَبْطَالِ وَالشُّجْعَانِ– كَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ– وَكَانَ اللّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا.

وما أجمل قوله: «وعاد السلطان إلى القدس»، لما فيه من تورية، فظاهر الأمر أنه يريد بـ«السلطان» صلاح الدين، والصحيح أنه يقصد عودة السلطة إلى مدينة القدس.

أما سيميائية «الشيطان» فمستقاة على وجه الخصوص من سورة الإسراء، بدليل بداية الخبر «ثمّ أقبَلوا بخيلِهم وَرَجِلِهم»، وترجَمَتُه الآيةُ التي تخاطب الشيطان: ﴿وأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء، 17/64]، وفي آخرها: ﴿ومَا يَعِدُهُمُ الشَّيطانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، لقد وسوس للفرنج أن يقاتلوا، فأوردهم التهلكة، وهذا تقوله السورة نفسها في آية أخرى: ﴿إنَّ الشَّيطانُ يَنزَغُ بينَهُم إنَّ الشَّيطَانَ كَانَ للإِنسانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء، 17/53].

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 16/640.



3. الخاتمة

انطلقنا من وجوب إبقاء حالةِ التوثّب قائمة، لفكّ أسر القدس، ومن ذلك «الحرب النفسية»، وتنهض الكتابة البحثية بقسط وافر منها، حين تخاطب النُّخَب، وتنشد الحقائق المعلّلة.

وأوضحنا أنّ السبب الأول لاتخاذ «البداية والنهاية» مدوّنةَ البحثِ أنّ التنقيب في التاريخ مفتاح لإقالة عثرات الحاضر، واستشراف الغد الباسم، والسبب الثاني هو ابن كثير نفسِه، فقد وُلِد عَقِب انتهاء الحروب الصليبية، وكتب رسالة في الجهاد، وأمضى غالب عمره بدمشق، قريبًا من أرض الرباط بالقدس.

وفي تتبعنا لدلالة «القُدْس» تبيّن أنّه في الأساس: «تنزُّهُ اللّه عزّ وجلّ»، ثمّ أطلق «القدس» أو «بيت المقدِس» على أورشليم بفلسطين، وكان يحجّ إليها المسيحيون؛ لأنها البيت المطهَّر الّذي يُتَطَهَّر به مِن الذُّنوب، وقد فُسِّرَت مواضعُ مذكورةٌ في آيات تتناول أحداثًا حسّاسة، بأنها القُدس.

واستنتجنا بعد دراسة ميدانية معجمية أنّ ابن كثير يُظهر لنا صورة القدس مُلِحّة، إذ يستحضر الألفاظ المقارِبة للقدس، ولو في سياقات أخرى، وكـأنّه يأبى أن يفارق قلمه. وقد ناقشنا ما توحي به هذه الألفاظ من تعميق مفهوم «القدس».

وفي شأن مكانة القدس الدينية في «البداية والنهاية»، درسنا سيميائيًا عدة نصوص: قصة طالوت ودهن القدس- مكان ولادة السيدة مريم- الملك قسطنطين والأناجيل- بيت المقدس والطائفة الظّاهرة- طول حوض النبيّ من الكعبة إلى بيت القدس.

وحين وصلنا إلى تقصّي التعبير الأنيق عن مكانة القدس في قلوب الناس، اقتطفنا بعض ما ذكر به القاضي الفاضل، والفقيه الأمير ضياء الدين، وعناية صلاح الدين بالقدس، وزيارة الشاطبي للقدس، ولمسنا جودة في توظيف الدلالات الفرعية، لتعميق الدلالة المركزية «القدس».

وأنهينا البحث باستجلاء صورة القدس في كنف الحكّام الغيورين: عمر بن الخطاب، وأبي جعفر المنصور، وصلاح الدين الأيوبي، حين اقترنت بعض مفاصل

حياتهم بالقدس، وحذونا في دراستها حذوَ المبحث السابق، لنصل إلى نتائج تؤكّد نتائجه.

لقد قطفنا باقة سريعة من بستان «البداية والنّهاية»، غير أنّها لا تظهر كلّ المشهد التاريخي الذي يمتاز به «القدس»، ولا المشهد العقَدي، ولا المشهد الأدبي.

ولذلك أحثّ سائر الباحثين أن يخوضوا غمار «البداية والنهاية» في دراسات مشابهة أو رديفة، تكشف عمقَ العظمة التي أسبغها القدس على هذا الكتاب من «البداية» إلى «النهاية».

وأحثّ كلّ المؤسّسات الثقافية الخيِّرة أن تنهض بأعمالٍ فكرية وإعلامية متواصلة، ترمي إلى إبقاء وهج القدس في النفوس، وفي القلوب، وأن ترعى الأقلام الرائدة التي تستظلّ بشجرة القدس المباركة.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا- مصادر البحث:

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدّس.
- إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، لا ب، ط1، 1997م.

ثانيًا- مراجع البحث:

- إبراهيم بيومي مدكور ويوسف كرم: دروس في تاريخ الفلسفة، القاهرة: المطبعة الأميرية، لا ط، 1945م.
- إبراهيم مصطفى (وآخرون): المعجم الوسيط، إستانبول: دار الدعوة، لا ط، لا ت.
- ابن حجر الهيتمي: الفتاوى الحديثية، بيروت: دار الفكر، لا ط، لا ت.
- أبو الحسن الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح محمد علي شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415ه.
- أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق رياض قاسم، بيروت: دار المعرفة، ط1، 2001م.
- أبو نعيم الأصفهاني: تاريخ أصبهان، تحقيق سيد كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1410ه/1990م.
- أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1421ه/2001م.
- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، القاهرة: عالم الكتب، ط6، 2006م.
- إسماعيل بن حماد الجوهري: الصّحاح، اعتناء خليل مأمون شيحا، بيروت: دار المعرفة، ط4، 2012م.

- إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419ه.
- حسن الحسن: الدولة الحديثة إعلام واستعلام، بيروت: دار العلم للملايين، لا ط، 1986م.
- حسن السندوبي: شرح ديوان امرئ القيس، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ، ط3، 1953م.
- خير الدين الزركلي: الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002م.
- الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1438ه/2017م.
- سميح عاطف الزين: حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي، بيروت: دار الكتاب اللبناني- القاهرة: دار الكتاب المصري، ط2، 1991م.
- الشريف الجرجاني: التعريفات، تحقيق عادل أنور خضر، بيروت: دار المعرفة، ط1، 2007م.
- عارف باشا العارف: تاريخ القدس، مصر: دار المعارف، لا ط، 1951م.
- عبد الحليم عويس: الحضارة الإسلامية إبداع الماضي وآفاق المستقبل، القاهرة: دار الصحوة، ط1، 2010م.
- الفخر الرازي: مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420ه.
- مجموعة مؤلفين: المنجد في الأعلام، (مطبوع مع المنجد في اللغة)، بيروت: دار المشرق، ط28، 2007م.
- محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، بيروت: دار الفكر، لا ط، 1979م.
- محمود شلتوت: إلى جميع المسلمين في شهر رمضان، القاهرة: مجلة الأزهر، الجزء9، المجلد31، رمضان 1379هـ.
- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت:

دار إحياء التراث العربي، لا ط، لا ت.

- مهى جرجور: سيميائية الشعر (بحث في كتاب لعدة مؤلفين: دليل مناهج البحث العلمي- قسم اللغة العربية وآدابها)، بيروت: الجامعة اللبنانية/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 2020م.
- نبيل أيوب: النقد النصي وتحليل الخطاب 2 (نظريات ومقاربات)، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، لا ط، 2011م.
- نبيل موسى: موسوعة مشاهير العالم أعلام علم النفس وعلم التربية والطب النفسي والتحليل النفسي، بيروت: دار الصداقة العربية، ط1، 2002م.
- هيام كريدية: أضواء على الألسنية، بيروت: لا د، ط1، 2008م.
- هيام كريدية: الألسنية الفروع والمبادئ والمصطلحات، بيروت: لا د، ط2، 2008م.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت: دار صادر، لا ط، لا ت.